صورة القصيدة الجاهلية

علي محمد علي الحبوبي

نظم الشعر الجاهلي في أوزان عديدة تمثلها البحور التي آستنبطها الخليل بن أحمد الفراهيدي جميعاً ــ خمسة عشر بحراً ــ وإنْ كانت بعض هذه البحور قد غلبت على الشعر يومذاك ، كالطويل والبسيط والوافر والكامل والمديد والرجز .

وتناولت القصيدة الجاهلية موضوعات مختلفة ، تنقلت بينها ، وآلتزمت في التعبير عنها ، طرقاً ثابتة وصوراً مُحدَّدة وتقاليد فنية . لم تَحِدْ عنها ولم تسع إلى تغييرها . ذلك لأنَّ هذه الأغراض والموضوعات والتقاليد والقوالب التعبيرية كانت ثمرة جهود طويلة سلفت ، لانستطيع أنْ نتتبعها لأنّ التاريخ لم يحفظ لنا إلا الحلقة الأخيرة منها ، ممثلةً فيما بقي لنا من شعر القرن آلسابق على ظهور الإسلام . وهذه الآثار فيما بقيت تكشف لنا عن آلعَراقة وآلنُضج ، وتُصوّر إعجابَ هؤلاء بما وصلوا إليه ، وآعتقادهم أنَّ ما بلغوه يمثل النهاية التي ليس وراءها شيء يطلب .(١)

تبدأ القصيدة الجاهلية بالتشبيب ، فكان الشاعر يقف على الأطلال ، الدَارسة والشخوص البالية ، بعد أنْ ألحّ عليها المطر الغزير غِبَّ بين الأحبة ويتتبع الحبيبة في رحلتها الطويلة وفي منازلها التي تحل بها أثناء هذه الرحلة ،

(١) عن محاضرات الدكتور محمد محمد حسين لطلبة السنة الثانية في جامعة الإسكندرية لعام١٩٦٤ ١٩٦٥ م .

بسيل من العواطف الثائرة والمشاعر الفياضة ، ثم يُفضي إلى الصحراء الواسعة التي تجوب الريح أرجاءها ، فتثير الفزع في نفوس سالكيها وتحملهم على الحرص على بقايا الماء ، خوف الهلاك والضياع ، وتهزل النوق القوية الصلبة التي يستعين بها المسافرون على اجتيازها حتى تغدو هُزلاً ضوامر لاتقوى على حمل نفسها ، بعد ذلك العناء البالغ والنَصب الشديد . وأخيراً يعرض الشاعر — في خلال قصيدته — لألوان من الشعر تُصوّر البيئة حيناً ، وتصور ما يجري عليها من أحداث حيناً آخر ، أو يبرز المثل الأعلى ، كما يتصوره هو من ناحية ، وكما يتصوره عصره من ناحية أُخرى ، وقلما تختلف الصورتان لأنّ مايتصوره الشاعر مستوحى من قيم العصر ومفهوم الجماعة العربية ، كأنْ بصور الشاعر ذلك المثل تصويراً مباشراً حين يمجّده في الفخر والمدح ووصف الحروب وأبطالها ، ويصوره تصويراً سلبياً حين يهجو كل من يتعارض معه أو يناقِضه .(١)

وبهذا أصبحت القصيدة الجاهلية تجري على نظام ثابت لايختل . فهي تبدأ بالوقوف على الأطلال ووصف رحيل الأحبة ، وتنتقل إلى وصف الناقة وتصوير الصحراء وما فيها من حيوان ونبات وجماد ، ثم تنتقل إلى المدح أو الهجاء.وربما أسقط الشاعر من قصيدته قسماً أو قسمين من هذه الأقسام ، ولكن هذه الأغراض إذا كانت ممثلة في القصيدة فهي تجري دائماً على هذا النظام ، أو تجيء عليه في الأغلب الأعم .

ولما كان هذا الترتيب للقصيدة الجاهلية التزاماً لم يشذ عنه شاعر ، لهذا لايمكن اعتبار القسم الأخير من القصيدة هو الغرض الأصيل الذي قصد اليه الشاعر وأن القسمين الأولين ما هما إلا تمهيد له ، لأن الجهد الفني المبذول في هذه الأقسام الثلاثة والعناية الكبيرة التي حظيت بها منه يدلان على انها في درجة واحدة من حيث الثبات والأصالة والاهتمام ، ويدلان على أنهما — أي الجهد الفني والعناية — موزعان توزيعاً عادلاً لاإجحاف فيه . وربما يصح هذا القول بالقياس

(١) الهجاء والهجاء في الجاهلية : ص١٦ .

إلى الشعراء المتأخرين الذين التزموا بهذا الترتيب تقليداً ومحاكاة لا انفعالاً وشعوراً.

إن هذا الترتيب الذي خضعت له القصيدة الجاهلية تعبير عن الواقع الذي كان يواجهه العربي يومذاك وتصوير للحياة التي كان يحياها في تلك الحقبة من الزمن ، حين فرض عليه التنقل في مجاهل الصحراء ، بحثاً عن منابت الكلاء ومصادر المياه . وقد كانت الحياة قاسية بالغة القسوة عندما تحمل هذه القبائل على هجر أوطانها والرحيل بعيداً عن مواطن استقرارها المعهودة إلى الضرب في مناكب الأرض الفلاة ، سعياً وراء ما يسد الرمق ويطفيء الغليل حتى غدت حياتها الكلية عنواناً للرحيل الدائم والهجرة الموصولة ، لم تذق فيها طعم الاستقرار شأن أهل الحواضر والمدن . وقد تلتقي عدة قبائل — تختلف أصولها ومواطن منازلها الأولى — عند مرعى معشب تستقر عليه أو غدير ماء تحف حواليه مدة من الزمن ، ثم يتبدد اجتماعها عندما ينضب الماء ويفنى النماء ، فتزم كل قبيلة رحالها إلى منازلها الأولى التي غادرتها في فصل الجفاف . وكما اجتمعت هذه القبائل على غير موعد مضروب كذلك يكون التعارف عن غير قصد منها بفعل عوامل الاجتماع ووحدة المعاش ، فإذا النهار المشرق رعي دائم ، وإذا الليل الساجي سمر موصول ، وإذا الاختلاط البريء — وما يفرضه الجوار والتعاون بين الشباب والشابات — لا تحول دونه عوائق أو عقبات . وقد يتعلق قلب شاب من هؤلاء الشباب بحب فتاة من الحي المجاور لحيه . يخالسها النظرات ويتحدث اليها حين يلتقي بها — في ود وحنان ، فأن ضربت عصا البين بالرحيل وتهيأت المطايا للظعن ، وأقفر المكان من تلك الحياة العامرة ، أودعت هذه الحبيبة في قلب محبوبها صورة يضم الاضلاع عليها ، ويلفها بمشاعر الأسى والحزن ويلونها بالدم والدموع .

فأن ألم بالمكان الحبيب كرّة أخرى مع قومه حين تدفعهم الهجرة اليه ثانية ، أو مع خواطره حين تسوقه اليه سوقاً عنيفاً ، ووقف به ساعة أو بعض ساعة ، متجولاً في ذلك الربع الدارس ممعناً النظر في مواطن الوصل واللقاء ، متأملاً ما بقي من آثار الحي من وتدأو نؤى أو إثفية أو مما تخلف

بعد الرحيل ، ناظراً إلى الغربان تنعق فيه والآرام والأبقار وصغارها تجوس نواحيه ، بعد أنْ كان آهلاً بقاطنيه ، ثارت الذكريات في نفسه وعصف به الشوق وتملكه الحنين ، وحلق به الخيال على أجنحته ، ليبصر الجمال وهي تتهيأ للسفر ، وصاحبته في الهودج بين النساء ، فيجرى وراءها حتى تغيب في بطن الصحراء ، ثم يؤوب إلى نفسه بعد هذه الرؤى الحالمة التي تتخللها مناظر وألوان ليواجه واقعه وما هو فيه . (١)

فهذه المناجاة الحزينة الدائمة التي يسكب فيها خلاصة شعوره نحو الطلل ليست أمراً منكراً على العربي ، بعد أن أدركنا واقعه ، وعرفنا الظروف التي تحيط به فالواقع المرير كان له شأن كبير في تقرير مصيره ، يوم فرضت عليه ضرورة البقاء أنْ يعيش متنقلاً على صفحة البيداء ، مخلفاً في كل بقعة ، قيها فلذة من كبده وقطعة من تاريخه ، لا يستقر في موطن ولا يعرف ، الراحة ، ويكره على التنقل ويدفع اليه دفعاً . (٢) ولهذا كانت المرأة هي السكن والقرار في هذه الحياة القاسية ، يطمئن عندها من اضطرابه ويسكن اليها من وحشته ، وقد غدا آثر شيءٍ إلى نفسه وأحبّه إلى فؤاده حبيبة يسترجع معها الذكريات الحلوة والمرة ، ويبثها لواعج هواه وشكواه ، إنْ أسعفته الظروف أنْ يلتقي بها ويجتمع معها ، فإنْ حال الزمان دون ذلك فلم يجد سوى الربع يروى أديمه بدموعه تارة ويخاطبه عن الحبيبة الظاعنة المأثورة تارةً أخرى ، ويتلمس كل ما لها من آثار ومخلفات في ساحته ، ويظل عند هذا الحنين كلما أثاره الشوق وعصفت به الأشجان . ويعمق هذا الحنين ويشتد كلما كان الأثر أكثر اندراساً ، لأن تأثيره أقوى في ، في النفس وأعمق في استثارة العواطف والأحاسيس . ٣)

وبعد هذا الحديث الملتصق بنفسه والطافح بأشجانه وأحزانه يتطرق

(١) عن محاضرات الدكتور محمد محمد حسين لطلبة السنة الثانية في جامعة الإسكندرية لعلم ٩٦٥/٦٤

(٢) وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية : ص٩ .

(٣) وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية : ص١١ .

إلى ذكر الصحراء والناقة والضرب في الفلوات ، وإنضاء المطي بالأسفار ووصف هذا الحيوان الوحيد الذي يقاسمه سرّاءَ الحياة وضراءها .

لقد كان حديث الناقة والخوض في مجاهل البيداء لوناً من المغامرات الأثيرة إلى النفوس الشعراء ، حين يستعيدون بهذا الحديث عنصر المخاطرة والفتوة والشباب الذي خلفوه وراءهم .

وهذا الجزء يعدّ متمماً لتلك الخواطر والذكريات عن المرأة وألوان العلاقة بها(١)

صور هؤلاء الشعراء الناقة قوية صلبة ، قد خصّها صاحبها بمزيد العناية ووافر الاهتمام فعلفها وأراحها وطرد عنها الفحول كي تحافظ على قوتها ولا يرهقها الحمل . فإذا أزمع الرحيل فهي صبور تتحمل آلام الطريق وتصل الليل بالنهار في سير متواصل دون كلل أو إعياء . حتى إذا انتهت الرحله بدت ضامرة ضاوية ، تشكو إلى صاحبها مما ألم بها من الارهاق والتعب والنصب فيعزيها على ذلك بما سينال من عطاء الممدوح ونواله .(٢)

لقد شغلت الناقة حيزاً كبيراً من القصيدة الجاهلية ، فعدّوها حيناً وسيلة لتمضية الهموم كما في قول طرفة بن العبد : (٣)

وأني لأمضي الهمّ عند احتضاره بعوجاءَ مرقال تروح وتغتدي

وعدّوها حيناً آخر جسراً يوصلهم بالممدوحين ، كما في قول الأعشى : (٤)

لا تشكيّ إليَّ من ألم النّسـ ـع ولا من حفاً ولا من كلال

لا تشكيّ إليَّ وانتجعي الاسـ ـود أهل الندى وأهل الفعال

ولهذا عكفوا عليها يصفون قوة خلقها ومتانته ، ويقدمون لأعضائها التشبيهات الكثيرة الملموسة التي تبرز الناقة وتجلي عناصر القوة والجرأة والسرعة التي تتحلى

---

(١) الشعر العربي بين الجمود والتطور : ص٣٤ .

(٢) اساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة : ص٥٣ .

(٣) جمهرة اشعار العرب في الجاهلية والإسلام : ص٣٨٠ .

(٤) جمهرة اشعار العرب في الجاهلية والإسلام : ص٢٦٢ .

بها .وكان حديث طرفة بن العبد عنها مثالاً يحتذى ومنهجاً يُتبع عند الشعراء إذْ لم يترك عضواً من أعضائها إلا وذكره وأردفه بتشبيه يبرزه ويجلّيه ،وكأنه يهدف إلى أنْ يقيم لها تمثالاً يتأمله ويتقرى محاسنه ،كلما شاقه ذكر الناقة وآثر أنْ يستحضر صورتها (١) فكان « الشعراء يسهبون في أوصافهم ويستطردون استطرادات غريبة في أحاديثهم ،وهي في معظمها تنحصر في الصفات التي تؤكد قوة هذه الناقة ،وشدة مقاومتها لعوارض الصحراء وسرعتها في قطع مسافاتها ، وفي كل صفة من هذه الصفات تتجلى براعة الشاعر الذي يمنح هذا الموصوف مايجعله أكثر قدرة على السير وأشد مقاومة لما يعترضه من مصاعب ،وأخف سرعة في الوصول إلى المكان المحدّد له »(٢)

ثم كانوا يُعقبون بالصور المعهودة عن الحمار والثور والظليم ،لبيان السرعة والقوة والقدرة على مواجهة الصعاب وتحمل المتاعب والأهوال (٣)

فلا غرابة بعد ذلك كله — إذا ما أصفاها الشاعر الجاهلي خلاصة مشاعره ومنحها صفو القول وأشاد بنعوتها وأوصافها وذكرها بعد المرأة الظاعنة والأطلال الداثرة ،فقد كانت شريكة حياته ،تشاطره سعيه وكفاحه ،ويطرد بواسطتها همومه وأحزانه ،وتسهل عليه بلوغ مآربه ،وتقاسمه مخاوف الليل وحرارة النهار في تلك الفلاة المقفرة .

أما حديث الشاعر عن قيم العصر إيجاباً وسلباً ، متمثلاً ذلك في نفسه أو في قومه او في شخص بعينه فيمكن أن يلاحظ في اعراض المديح و الفخر والهجاء

فهو في المديح يقيم مدحه على مايراه في ممدوحه من كرم الجوار والعزة والآباء والشجاعة والفتك في الأعداء والكرم ورعاية الحقوق ، من غير أن يعمد فيه إلى الغلو في الصفات ، ولا يتوسل إلى الصنعة في النسج والبناء ، فالصدقُ أبرز مايتحلى به الشاعر في المديح ، حتى غدا سُنّةً محببة الإحتذاء

(١) لاحظ معلقة طرفة بن العبد في : جمهرة اشعار العرب في الجاهلية والإسلام : ص ٣٨٠/ ٣٩٦ .
(٢) وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية : ص٣٤ — ٣٥ .
(٣) وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية : ص٣٥ .

عند شعراء العصر الجاهلي في الأغلب الأعم . ولكن عندما إتخذ المديح وسيلة إلى الكسب ، وحرفة لاستدرار العطاء ، عندها أعرضَ عن الحقيقة ومال إلى المبالغة ، وترك البديهة إلى الصنعة ، كي يحقق مايريد من التاثير في الممدوحين(١) فكان زهير الذي إختصّ بأشراف قومه وحسّان بن ثابت الذي دار في فلك الغساسنة ، والنابغة الذي تعلق بأذيال النعمان بن المنذر ، أما الأعشى فقد جعله « حرفة خالصة للمنالة والتكسب ، إذ لم يترك ملكاً ولا سيداً مشهوراً في أنحاء الجزيرة إلاّ قصده ومدحه وفخّم شأنه معرضاً بالسؤال ». (٢)

وهو في الفخر يقيم فخره على الإهتمام بالقبيلة والإعتزاز بمكانتها ، فهي موئله ومعقل رجائه ودولته التي يجد في كنفها الأمن والرعاية ، كما يرتبط معها بعقد إجتماعي أصّلته التقاليد ووثقته العادات ، حتّى صار الإثنان لايستغني أحدهما عن الآخر ، لا القبيلة تستغني عن شاعرها لأنه لسانها والمعبّر عنها في كل المواقف والظروف ، ولا الشاعر يستغني عن قبيلته لأنها كهفه الذي يأوي إليه ويلقى فيه الحفاوة والتكريم . ولهذا إنطلق يتغنى بمآثرها ويبين غابرها ويذكر ما تمتاز به بين القبائل من مكانه ورفعة ، من غير أنْ أنْ يقصد إلى التعالي على قبيلة بعينها أو يهدف إلى الرد على شاعر بعينه ، وإنْ كان في شعره مايدلّ على هذا التعالي أويشعر بهذا الرد المقصود(٣)

---

(١) العصر الجاهلي : ص ٢١١.

(٢) العصر الجاهلي : ص ٢١٢ ، — لقد كان الأعشى على رأس الشعراء المتكسبين الذين احتفلوا بشعرهم لهذه الغاية، أنظر ما قاله في الأسود المنذر بن ماء السماء « لا تشكي إلي وانتجعي الأسود....» في جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام : ص ٢٦٢وما بعدها،وديوانه ص ٧ وما بعدها.

(٣) أنظر معلقة لبيد بن ربيعة من قوله« إنا إذا التقت المحافل لم يزل... » في جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، ص ٣٢٨ وما بعدها،وشرح القصائد التسع المشهورات ص ٤٤٨ وما بعدها ومعلقة عمرو بن كلثوم في جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ص ٣٤٤ وما بعدها ،وشرح القصائد التسع المشهورات ص ٦٢٨ وما بعدها، ومعلقة الحارث بن حلزة اليشكري في شرح القصائد التسع المشهورات ص ٥٦٣ وما بعدها، ولم يرد لها ذكر في جمهرة أشعار العرب إذ لم تعتبر — عدد بعض الدارسين القدماء — من المعلقات.

ثم هو في الهجاء يقيم هجاءه على كل ماينا قض المثل العليا عنده وعند المهجو على حد سواء ، مناقضة مبنية على السخرية والإستهزاء ، إذ يصمه بالبخل الذي كان في عرف الناس كلهم وفي عرف العصر نبزاً يرمى به الرجل وطعناً تنفذ فيه سهام الشاعر ، عندما يتصوره — مثلاً — شبعان ممتلئ البطن من الطعام وجيرانه يتضورون جوعاً لايجدون مايتبلّغون به ، دون أن يلتفت إليهم وينقذهم من مسغبتهم . أو يصمه بالجبن والإستنامة إلى الدعة والسكون ، والأرضُ من حوله تموج بالأبطال من ذوي المآثر والأفعال ، حتى يمزقة ويقضّ مضجعه ويحيل نهاره إلى ليل مظلم لايرى من خلاله بارقة النور .(١)

وبهذا ندرك أنّ ترتيب القصيدة الجاهلية لم يأت إعتباطاً ولا حملاً للنفس على نهج مرسوم وطريق معلوم ، ولكنه ترتيب تفرضه المشاعر وتقدره وجدانات الشاعر قوة وضعفاً . فهي وحدة مترابطة ، على الرغم من تشتت الموضوعات التي تضمها وتباعد العلاقة بينها ، لأنها مستقاة من تجربة عاطفية ، ومن واقع له سلطانه على الناس والشعراء على حد سواء . وقد استقرت هذه الصورة في ذهن ابن قتيبة ، حتى جعل من الشاعر المجيد من يفتتح قصيدته بذكر الديار والدمن والآثار ، فيبكي ويخاطب الربع ويستوقف الرفيق ، ويذكر أهلها الظاعنين وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مسا قط الغيث ، ثم يصل ذلك بالنسيب ، فيشكو شدة الوجد وألم الفراق ، ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه ، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه ، بعد ذلك يرحل في شعره فيشكو النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير ، وإنضاء الراحلة والبعير ، ثم يدلف إلى المديح فيبعث الممدوح على المكافأة ويهزه للسماح

---

(١) أنظر ما قاله الأعشى في هجاء علقمة بن علاثة :

تبيتون في المشتى ملاءا بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصاً

ديوانه : ص ١٤٩.

وما قاله قريط بن أنيف في هجاء قومه الذين ألفوا الذل والهوان :

لكن قومى وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا

عن ديوان الحماسة : القسم الأول ص ٢٢ وما بعدها :

ويفضله على الأشباه . « فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدّل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد»(١) .

وشاعت في القصيدة الجاهلية تقاليد أُخرى ، من قبيل الإلتزام بقوالب تعبيرية معينة ، والإستعانة بتشبيهات متكررة ، وذكر صور واحدة .

فمن القوالب التعبيرية المعينة الإلتزام بأسلوب واضح في طريقة التخلص من صورة إلى أُخرى . فإذا أراد الشاعر أنْ يتخلص من الغزل إلى وصف الرحلة تخلص بطريقة معروفة قلماً يشذ عنها .

فإنْ كان واقفاً بالأطلال قال لما رأيت ان الاطلال لاتجيبني نهضت إلى ناقتي . وإن كان يتحدث عن رحيل صاحبته قال: هل تلحقني بهم ناقة ؟؟ وإنْ أحبّ أنْ يذكر صدود صاحبته عنه وإعراضها قال : فصرّم حبلها وآقطع ودّها مثلما قطعت ودكّ بالسفر على الناقة شديدة . وإنْ ذكر ماكان بينه وبينها من ود قال : فدعها وسلّ الهم عنك بجسرة .(٢)

ومن التشبيهات المتكررة مايتعلق بالصحراء والناقة ، مثل تشبيه الطرق في الصحراء بالخطوط في الكساء ، وأعلام الطريق بالرجال ، ووحشة الصحراء بصوت البوم أو بعزيف الجن أو بنواح الخلاء ، والهوادج في الصحراء بالسفن في لج البحر .(٣) ووصف الصحراء بأنها مطموسة المسالك ، مدفونة المناهل ، وبأن ماء آبارها راكد غير سائغ . وتشبيه الناقة بالبنيان الضخم ، ووصفها بتلاحم الفقار ، وتصويرها قبل السفر وقد علفها صاحبها وأحسن القيام عليها وتصويرها بعد الرحلة هزيلاً ضامرة ، وتصوير نشاطها في الهاجرة حين يخفق السراب وكأن هـِراً قد علق برحلها فهو ينهشها ويبعثها على الإسراع . وتشبيه هيكلها حين تضمر وقد إرتفع فوق أرجلها بتابوت الميت

---

(١) الشعر والشعراء: ج١ — ص ٢٠ والنص من ص ٢١ .
(٢) أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة : ص ٧٤/٧٥.
(٣) أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة : ص ٧٨—٨١ .

وقد حمل على هام الرجال ، وآثار السيور في جسمها المهزول باثار المشي أو الماء في الصحراء حين يترك طرائق واضحة ، وذنبها بشمراخ البلح ، وعينها بالمرآة ووصفها بأنها تستخف بالردف ، وتسير ولا طعام لها إلاّ ماتجترّ فضل مافي معدتها ، وأنها تثير الحصى لسرعتها .(١)

ومن التشبيهات أيضاً مايتعلق بمختلف الأعراض ، فمن ذلك تشبيه الأطلال باثار الوشم وبالكتابة البالية ، والنساء بالظباء ، وأردافهن بالكثيب ، وبشرتهن الصافية بالؤلؤ وبالبيض المكنون ، ووجههن بالقمر الوضاء ، وأسنانهن بالؤلؤ ، وبالبلور وبأوراق زهر الأقحوان ، وشعرهن الأسود بالليل وبخطوط الكساء ، وعيونهن بعيون البقر ، وجيدهن بجيد الغزال ، وريقهن بالخمر وبالعسل ، وأناملهن بهدابّ الحرير ، وقوامهن بغصن البان ، ومشيهن بمشي القطا ، وكنايتهم عن دقة خصر المرأة بقولهم (صفر الوشاح) وعن ضخامة الأرداف بقولهم (ملء الدرع) وعن إمتلاء الساقين بقولهم « صامتة الخلخال». ومن تشبيه الوصل بالحبل ، وفيض الدموع بفيض الدلاء ، والمحب بالأسير والسكران ، والشجاع بالليث وباللسيف ، والكريم بالبحر وبالغيث ، والقامة بالرمح ، والحرب المريرة بالناقة العجوز وبالفحل الشرس ، والذي يثير الحرب ويؤججها بالذي يمد النار بالحطب ، والموت بالكأس المرة ، والفرس السريع بالعقاب بالسابح ، والفرس الطويل الظهر بجذع النخلة وبقناة الرمح.

وتصويره في سرعته وكأنه يباري رمح راكبه محاولاً أنْ يسبقه ، والسهام في سرعتها حين تنطلق بالنحل ، ولمعان السيوف بترقرق صفحة الغدير ، والعدو المغير بالضيف ، وتعبيرهم عن التنكيل به بالقرى على سبيل التهكم ، وكنايتهم عن الطويل القامة بأنه طويل النجاد ، وعن الشريف بأنه رفيع العماد ، وعن المنجد ذي المروءة بأنّه واري الزناد .(٢)

---

(١) مقدمة ديوان الأعشى : ص ذ – ص . ج

(٢) مقدمة ديوان الأعشى ص : ض .

ومن الصور ، صورة الحمار الوحشي عندما تتنكر له الطبيعة ، وتسد عليه مسالك العيش ، حتى يتبرم من واقعه ، فيسعى ليطفئ ظمأه وظمأ أتانه التي يسوقها سوقاً عنيفاً ويحرص عليها من الفحول ، وهي تنفر منه وتتقيه برجليها إذا مادنا منها ، ليرد بها عين ماء حفت بالعشب الطويل الذي يكمن فيه الصائد ، وعندما يقترب من الماء ، ويهمّ أنْ يدس فمه فيه ، أذا بسهام الصائد تنصب عليه ، فيفر منها مسرعاً لايلوي على شيئ ، تتبعه اتانة بسرعة . وصورة الثور حين تدهمه السماء بغيث منهمر ، يفر منه إلى شجرة الأرطى عند نجوة من الأرض ، ليقضي الليل مندّساً بين أغصانها ومع بشائر الفجر يعدو مسرعاً ، فإذا بالأرض تنشق عن كلاب ضارية تعدو وراءه بهمة ظاهرة فيكر عليها مستبسلاً في الدفاع ، حتى يظهر عليها ويخلفها تخوض بدمائها ثمّ صورة الظليم والنعامة ، حين يدركهما الظلام وهما في مكان من الصحراء فيجريان بهمة متناهية ليدركا أفراخهما قبل إشتداد الظلام ونزول البرد . (١)

لقد كانت هذه القوالب التعبيرية والتشبيهات المختلفة والصور المعهودة مما تعارف عليه الشعراء الجاهليون ، حتى غدت تقاليد فنية التزموا بها في قصائدهم. وقد يأتي بعض الشعراء بالمبتكر من هذه الصور والتشبيهات بحسب ماتسمح به بيئته وآفاق خبرته من القرب أو البعد عن مصادر الحضارة والثقافة . فزهير بن أبي سلمى تغلب عليه الحكمة ، كما تغلب عليه الصنعة والصقل ، ويهتم في بعض جوانب شعره بالتصوير والتفصيل لبعض المشاهد ، وتلوين هذه المشاهد بألوان زاهية محببة إلى نفسه .(٢) ونلحظ عند الأعشى ظاهرة أسلوبية واضحة ألا وهي الإستدارة وقد تأثر بها الأخطل التغلبي من الشعراء الدولة الأموية ، وهي صورة من صور الترابط الذي يقوم بين الأبيات ، والمقصود بها توالي مجموعة متلاحمة من الأبيات تجري على نظام متسق يقوم

(١) أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة : ص ٥٣ وما بعدها ، ووحدة الموضوع في القصيد الجاهلية : لوحة الصيد : ص ٤١ ، وما بعدها.

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ص ٢٤ وما بعدها ، وديوان زهير : ص ٩-١٣.

فيه كل بيت بنفسه في معناه ، ولكن المعنى العام لايتم إلاّ بالبيت الأخير منها .(١) وفي شعر النابغة والخنساء شواهد على هذه الظاهرة .

كما نجد عند الأعشى أيضاً وعند إمريء القيس ظاهرة القصص ، حين يسوقان الغزل أحياناً على صورة الحوار ، ويتطرقان فيه إلى مايقوم بينهما وبين النساء من الحديث . فالأعشى يمهد للقاء بصاحبته برسول يبعثه إليها فيحسن الدخول إلى مضاربها بعد أنْ يفلت من أعين الرقباء ، ليخبرها بموعد زيارة الأعشى ، ثمّ يأتي الأعشى ليأخذ قسطه من الحديث والمعابثة والمجنون .(٢) أما إمرؤ القيس فيقصد صاحبته من غير رسول ، حين يسمو إليها بعد أنْ ينام أهلها ، وتدور بينهما كأس الحديث ، ويأخذ معها في المعابثة واللهو حتى يقضي مأربه ، وهي تخبره بمخاوفها إنْ علم أهلها بوجوده معها ، لكنه يسكن روعها باستعداده للقتال وقدرته على التحدي والنزال .(٣)

فهذه هي القصيدة الجاهلية في كل ماتناولته من موضوعات ، وما إلتزمت به من ألوان التعبير وطرق التخلص من موضوع إلى آخر ، والتشبيهات والصور المعهودة .

---

(١) مقدمة ديوان الأعشى: ص — غ والشاهد في قصيدة : « ودع هريرة.....» في قوله:

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزر بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الاصل

(٢) مقدمة ديوان الأعشى: ص ب — م ،وقسم من القصائد التي عرضت هذه القصص .

(٣) ديوان امريء القيس : ص ٣١—٣٣ ، ونجد مثل ذلك في المعلقة التي ملأها بقصص النساء مثل قصة دارة جلجل ، وقصة بيضة الخدر ص ١٠—١٨.

المصادر :

١ — أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة بين الأعشى والجاهليين ، للدكتور محمد محمد حسين — مطبعة دار النشر والثقافة — الإسكندرية مصر — ١٣٧٩هـ — ١٩٥٩م .

٢ — جمهرة أشعار العرب في الجاهلية وآلإسلام : لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، تحقيق : علي محمد البجاوي = مطبعة لجنة البيان العربي — مصر — الطبعة الاولى ، ١٣٨٧هـ — ١٩٦٧م.

٣ — ديوان الأعشى الكبير — ميمون بن قيس بن جندل — تحقيق وشرح الدكتور محمد محمد حسين — المطبعة النموذجية — مصر — ١٩٥٠م

٤ — ديوان امرئ القيس : تحقيق : محمد أبوالفضل ابراهيم — مطبعة دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة — ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م .

٥ — ديوان زهير بن أبي سلمى : شرح الامام ثعلب — مطبعة دار الكتب المصرية — مصر ١٣٦٣هـ — ١٩٤٤م .

٦ — شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد الحسن المرزوقي — تحقيق : أحمد أمين وعبد السلام محمد هارون — مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة — الطبعة الأولى — مصر — ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م .

٧ — شرح القصائد التسع المشهورات لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس تحقيق أحمد خطاب — مطبعة الحكومة ، بغداد — الطبعة الاولى ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م .

٨ — الشعر والشعراء : لأبي عبدالله بن مسلم بن قتيبة—مطبعة دار الثقافة بيروت — لبنان — الطبعة الثانية — ١٩٦٩م .

٩ — الشعر العربي بين الجمود والتطور/ للدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى طبع مصر

١٠ — العصر الجاهلي : للدكتور شوقي ضيف — مطبعة دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة ١٩٦٠ .
١١ — الفن ومذاهبه في الشعر العربي : للدكتور شوقي ضيف — مطبعة دار المعارف بمصر الطبعة السابعة= ١٩٦٠ م .
١٢ — محاضرات الدكتور محمد محمد حسين لطبعة السنة الثانية في جامعة الاسكندرية ١٩٦٤
١٣ — الهجاء والهجاءون في الجاهلية : للدكتور محمد محمد حسين — مطبعة أحمد مخيمر مصر/ الطبعة الاولى / ١٩٤٧ م .
١٤ — وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية — للدكتور نورى حمودى القيسي — مطبعة دار الكتب في الموصل — الطبعة الاولى — ١٣٩٤ — ١٩٧٤م.

علي محمد علي الحبوبي

مدرس—قسم اللغة العربية
كلية الاداب—جامعة الموصل